الرسالة رقم: (٨) ..... مجموع رسائل البلاغة لابن رجب الحنبلي

الكلام على سورة النصر

دار اللباب

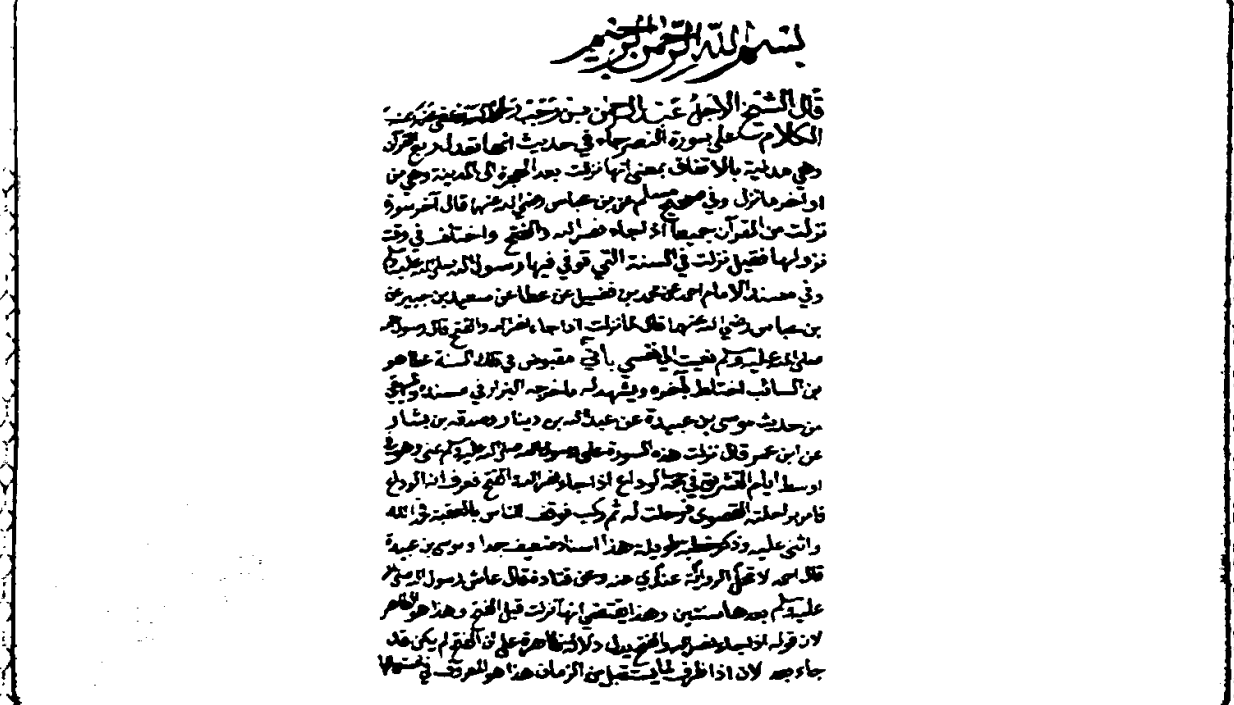

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأجل عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى: الكلام على سورة النصر من حديث ابن عباس في حديث أنها آخر ما نزل بالمدينة وهي من أواخر ما نزل وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً إذا جاء نصر الله والفتح واختلف في وقت نزولها فقيل نزلت في السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مسند الإمام أحمد عن محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيت إليّ نفسي بأني مقبوض في تلك السنة على هامش من السائب احتاط بآخره ويشهد له ما خرجه البزار في مسنده وأبو يعلى من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار وصدقة بن يسار عن ابن عمر قال نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى وهو أوسط أيام التشريق في حجة الوداع إذا جاء نصر الله والفتح فعرف أنه الوداع فأمر برحلته القصوى فرحلت له ثم ركب فوقف للناس بالعقبة فقال الله واثنى عليه وذكر خطبة طويلة هذا إسناد ضعيف جداً وموسى بن عبيدة قال أحمد لا تحل الرواية عنه وعن قتادة قال عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها سنتين وهذا يقتضي أنها نزلت قبل الفتح وهذا هو الظاهر لأن قوله إذا جاء نصر الله والفتح يدل دلالة ظاهرة على أن الفتح لم يكن قد جاء بعد لأن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان هذا هو المعروف في [illegible]

مكتبة الرياض العامة (و)

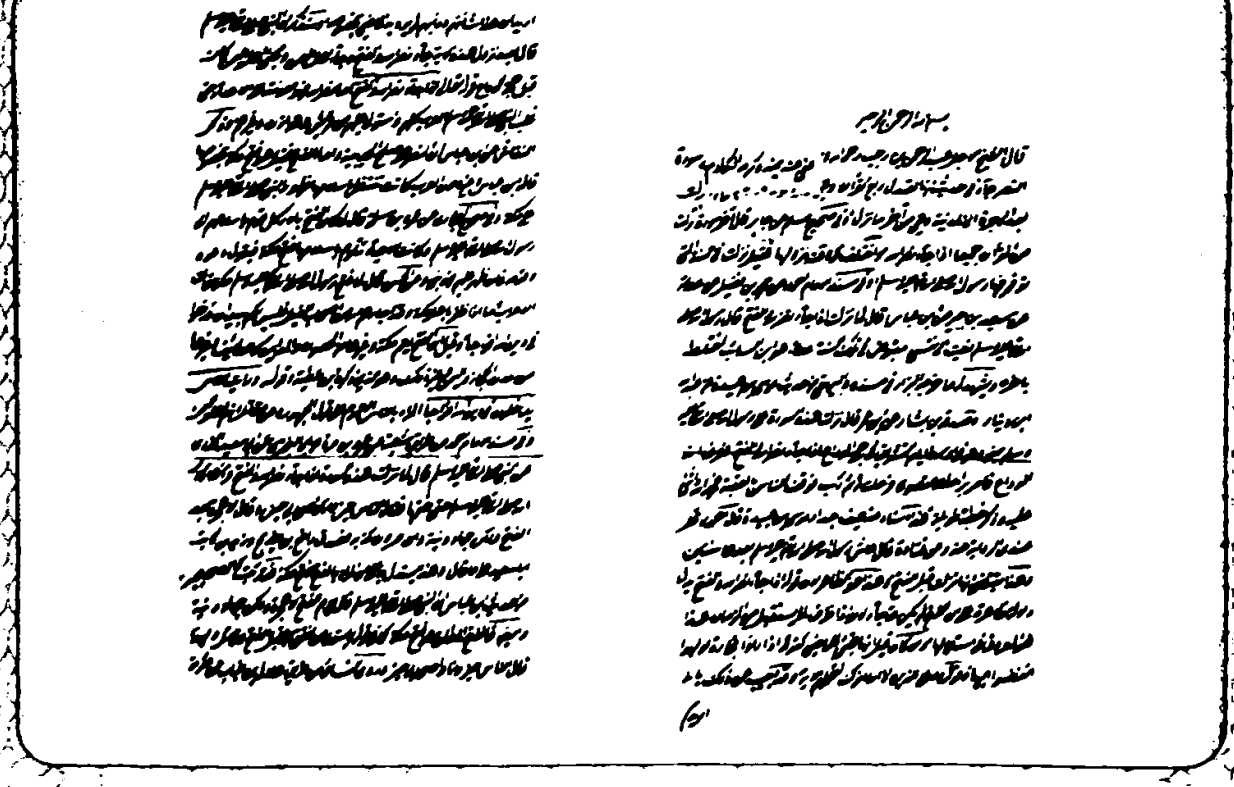

مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ـ عنها مصورة جامعة أم القرى (ج)

الكلام على سورة النصر وسورة تبت ونحو ذلك من سورة

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح المدائن على تفسير سورة النصر جاء في حديث لما نعلم أن هذه السورة نزلت بعد براءة وأنها مدنية بالاتفاق بعضها نزلت بمكة فإنهم إلى المدينة وبعضها نزل بعد الهجرة وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال آخر سورة نزلت على النبي القرآن جميعا إذا جاء نصر الله والفتح اختلف في وقت نزوله فقيل نزلت في السنة التي توفي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مسند الإمام أحمد عن محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيت إلي نفسي متوفى في تلك السنة عطاء هو ابن السائب لكنه اختلط بأخرة ويشهد لما خرجه البزار في مسنده والبيهقي من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار وصدقة بن يسار عن ابن عمر قال نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى وهو في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع إذا جاء نصر الله والفتح فعرف أنه الوداع فأمر براحلته القصوى فرحلت له ثم ركب فوقف للناس بالعقبة فحمد الله وأثنى عليه وذكر خطبة طويلة لهذا إسناد ضعيف جدا وموسى بن عبيدة قال أحمد لا تحل عندي الرواية عنه وعن قتادة قال عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها سنتين وهذا يقتضي أنها نزلت قبل الفتح والذي هو الظاهر أن قوله إذا جاء نصر الله والفتح يدل على أنه ظهر على الفتح لهم فإن فتح بعد ذلك لا يسمى فتحا لهم إلا على وجه بعيد من الزمان فهذا هو المعروف في استعمالهم وإن كان قد يستعمل في الماضي كما في قوله وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وقوله والذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه وقد أجبت عن ذلك بأنه أريد بذلك هنا أنهم لم يردهم للناس بخصوصه وسنذكر إن شاء الله عند نزول هذه السورة ما جاء في الفتح وما أهل اليمن ومجيء أهل اليمن كان قبل حجة الوداع فقوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح إما أن يراد به فتح مكة وهو المعونة على الأعداء حتى غلبوا النبي صلى الله عليه وسلم والعرب كلهم والسواد عليهم من قريش وهوازن وغيرهم وذكر الشافعي عن ابن عباس أن النصر هو صلح الحديبية وأما الفتح فقيل هو فتح مكة بخصوصه وهذا قول ابن عباس وعمر لأن العرب كانت تنتظر بإسلامها ظهور النبي صلى الله عليه وسلم على مكة وفي صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة قال لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأحياء تقدم بإسلامها فتح مكة فيقولون دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي وذكر الحسن قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قالت العرب أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل وليس لكم به يدان فدخلوا في دين الله أفواجا وقيل إن الفتح يعم مكة وغيرها مما فتح بعدها من الحصون والمدائن كالطائف وغيرها من مدن الحجاز واليمن وغيرها وهو الذي ذكره ابن عطية وقوله وأنت الناس يدخلون في دين الله أفواجا المراد بالناس العموم على قول الجمهور وعن مقاتل أهل اليمن وفي مسند الإمام أحمد من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه السورة إذا جاء نصر الله والفتح علم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها فقال الناس حتر وأنا وأصحابي حتر وقال لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا مروا بكم فانفروا وفي رواية لرافع بن خديج وزيد بن ثابت أما سعيد فما قال وهذا يستدل به على أن المراد بالفتح فتح مكة فقد ثبت في الصحيحين

مكتبة جامعة الرياض (ض)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله ناصر عبده بالفتح المبين، فدخل الناس أفواجاً في دين الله المستبين، والصلاة والسلام على خير من سَبَّح بحمد الله واستغفره وكان سيد التوابين، وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار والتابعين، وتابعيهم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فسورة النصر سورة جامعة، نزلت في أواخر حياة رسول الله ﷺ، فكانت علامة أجله ﷺ، وهذه السورة قَرَنت بين الفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً، فكانت مشيرة إلى حقيقة من حقائق المجتمعات، وأساس من أسس قيام الدُّول، وهي أن جمهور الناس إنما يتبعون من يكون له النصر والغلبة والتمكين، فقد أسلم بعد فتح مكة آخر عامين ونصف من حياته ﷺ أضعاف أضعاف من دخلوا في الإسلام خلال ما يزيد على عشرين عاماً قبلها.

وذلك أن غالب العرب كانوا تبعاً لقريش، فلما فتح الله لنبيه ﷺ مكة، وظهرَ على قريش: دانت له العرب جميعاً ﷺ، ودخلوا في الإسلام عن بكرة أبيهم إلا من كان على دين النصارى بأطراف الجزيرة، فلم يبق في جزيرة العرب عبدةُ أوثان ولا سدنة أصنام.

وقد تكلم الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بأسلوبه الماتع المعهود في رسالته هذه على تفسير هذه السورة الجامعة، وجاء بالمنقول من ذلك من المرفوع والموقوف والمقطوع، وختم ذلك بفضائل الاستغفار.

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

* * *

هذه الرسالة ذكرها للحافظ ابن رجب رحمه الله: يوسف بن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص: ٥٠). واقتبس منها ونقل عنها: الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» ـ تفسير سورة العصر ـ.

وقد وقفت على ثلاث نسخ خطية لها ـ وكلها متأخرة ـ، وأثبت منها نصاً أُراه أقرب إلى الصحة.

١ ـ نسخة مكتبة الرياض العامة السعودية، ورمزها (ر)، وهي في ضمن المجموع (٥٢٧/ ٨٦)، وقد تقدم وصفه في المقدمات. وهي ثمان صفحات، مسطرتها ٢١ سطراً، ولا يوجد اسم ناسخ، ولا تاريخ نسخ، وخطها متأخر.

٢ ـ النسخة البغدادية، ورمزها (ج) في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد (١٣٨٠٩/ ٤ مجاميع) من (ص: ٥٣ إلى ٦١). وعنها مصورة في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وهي في ٤ لوحات وسطرين. لا يوجد اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ، خطها فارسي من خطوط القرن الثالث عشر الهجري، مسطرتها: ٢١ سطراً. وقد سبق التعريف بهذا المجموع في المقدمات.

٣ ـ نسخة جامعة الرياض، ورمزها (ض) برقم (٤٤٣٣) في ضمن مجموع فيه

ثلاث رسائل أولها الكلام على سورة النصر. وهي في ٥ صفحات، مسطرتها ٢٤ سطراً وخطها من خطوط القرن الثالث عشر الهجري.

وللكتاب نسختان أخريان في جامعة الرياض برقم (١٦٣٩) (١٧٣٧)، ونسخة بغدادية ثانية برقم (٤٧٦٧/ ١٨)، وقد اعتمد عليها محقق الكتاب د. حسن ضياء الدين عتر رحمه الله تعالى ـ دار البشائر الإسلامية ـ وكلها نسخ متأخرة متقاربة.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم.

وكتب

محمد مجير الخطيب الحسني

***

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الكلامُ على سورةِ النَّصرِ[1]

جاءَ في حَديثٍ أنَّها تعدِلُ ربعَ القُرآنِ[2]، وهي مدنيَّةٌ بالاتِّفاقِ، بمعنى أنَّها نَزَلت بعد الهجرةِ إلى المدينةِ، وهي مِن أواخرِ[3] ما نزلَ، وفي «صحيحِ مُسلمٍ»، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: آخرُ سُورةٍ نزَلَتْ مِن القُرآنِ جميعاً: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[4].

واختُلِفَ في وقتِ نُزولِها:

* فقيلَ: نزلَتْ في السَّنةِ التي تُوفِّيَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عن محمَّدِ بنِ فُضَيلٍ، عن عطاءٍ، عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: لَمَّا نزلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نُعِيَت إليَّ نفسي» [بأنه][5] مقبوضٌ في تلك السَّنةِ[6].

---

(١) في مقدمة (ج) و(ر): «بسم الله الرحمن الرحيم. قال الشيخ الأجل عبد الرحمن بن رجب رحمه وعفى عنه بمنه وكرمه: الكلام على سورة النصر».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٢٤٨٨)، (١٣٣٠٩)، والترمذي (٢٨٩٥) وقال: حسن من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) في (ج): «آخر».

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٢٤).

(٥) ما بين معكوفتين وقع مكانه بياض في (ض)، وسقط من (ج)، وفي (ر): «بأني»، واستدرك من «المسند».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٧٣).

عطاءٌ هو ابنُ السَّائبِ اختلَطَ بأَخَرةٍ[١].

ويشهدُ له ما خرَّجه البزَّارُ في «مسنده»، والبَيهقيُّ مِن حديثِ موسى بنِ عُبيدةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ وصَدقةَ بنِ يَسار[٢]، عن ابنِ عُمرَ قالَ: نزَلَتْ هذه السُّورةُ على رسولِ اللهِ ﷺ بمنًى، وهو في أوسطِ أيَّامِ التَّشريقِ، في حجَّةِ الوَداعِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فعرفَ أنَّه الوَداعُ، فأمرَ برَاحلتِه القَصْواءِ فرُحلَتْ له، ثمَّ ركبَ فوقفَ للنَّاسِ بالعقبةِ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، وذكرَ خطبةً طَويلةً[٣].

هذا إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا. وموسى بنُ عبيدةَ: قالَ أحمدُ: لا تَحِلُّ عندي الرِّوايةُ عنه[٤].

* وعن قتادةَ قالَ: عاشَ رسولُ اللهِ ﷺ بعدَها سنَتينِ[٥].

وهذا يقتضي أنَّها نزَلَت قبلَ الفتحِ، وهذا هو الظَّاهرُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ يدُلُّ دلالةً ظاهرةً على أنَّ الفتحَ لم يكن قد جاءَ بعدُ، لأنَّ (إذا) ظرفٌ لِمَا يُستقبَلُ مِن الزَّمانِ، هذا هو المعروفُ في استعمالِها، وإن كان قد قيلَ: إنَّها تجيءُ

---

(١) والذي رواه أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه. أخرجه البخاري (٤٢٩٤)، (٤٤٣٠). فهو موقوف على ابن عباس، وليس مرفوعاً. وليس فيه ذكر السَّنَة. وسيأتي حديث ابن عباس: «قد نُعيت إليه نفسه» ﷺ. أخرجه أحمد (٣٢٠١).

(٢) في النسخ الخطية: «بشار» وهو تصحيف.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٦١٣٥) بطوله، وعبد بن حميد «المنتخب» (٨٥٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩٧٦٨ ـ ط دار هجر) مختصراً، و«دلائل النبوة» (٥/ ٤٤٧).

(٤) أخرجه عنه بسنده ابن أبي حاتم في ترجمة موسى من «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨/ ١٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧١٢).

للمَاضي كما في قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وقولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢].

وقد أجيبَ[١] عن ذلك: بأنَّه أُريدَ أنَّ هذا شأنُهم ودَأْبُهم، لم يُرِد بهِ الماضيَ بخُصوصِه، وسنَذكرُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعد نزولِ هذه السُّورةِ قالَ: «جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ، وجاءَ أهلُ اليمَنِ»[٢]، ومجيءُ أهلِ اليمنِ كان قبلَ حجَّةِ الوَداعِ.

* * *

قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾:

أمَّا نصرُ اللهِ فهو: مَعونتُه على الأعداءِ، حتَّى غلَبَ النَّبيُّ ﷺ العرَبَ كلَّهُم واستولَى عليهم مِن قُرَيشٍ وهَوازِنَ وغيرِهم.

وذكرَ النَّقَّاشُ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ النَّصرَ هو صُلْحُ الحُدَيبيةِ[٣].

وأمَّا الفتحُ فقيلَ: هو فتحُ مكَّةَ بخُصوصِها. قالَه ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما[٤] وغيرُه؛ لأنَّ العرَبَ كانت تنتظِرُ بإسلامِها ظُهورَ النَّبيِّ ﷺ على مكَّةَ.

وفي «صحيح البخاري»، عن عمرِو بنِ سَلِمةَ قالَ: لَمَّا كان الفتحُ بادرَ كلُّ قومٍ بإسلامِهم إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وكانتِ الأحياءُ تَلوَّمُ[٥] بإسلامِها فتحَ مكَّةَ، فيقولونَ: دعوهُ وقومَه، فإن ظهَرَ عليهم فهو نبيٌّ[٦].

---

(١) في (ض): «أجبت».

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٦٤٨)، وسيأتي.

(٣) ذكره عن النقَّاش: ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٣).

(٤) وهو مما ذكره ابن عطية عن النقاش أيضاً. وأخرجه البخاري (٤٢٩٤) من حديث ابن عباس في قصة.

(٥) في (ج) و(ر): «تتلوم». ومعناهما: تنتظر.

(٦) أخرجه البخاري (٤٣٠٢). وعنده: «اتركوه وقومه».

وعن الحسَنِ قالَ: لَمَّا فتحَ رسولُ اللهِ ﷺ مكَّةَ قالَتِ العرَبُ[١]: أما إذ ظفرَ محمَّدٌ بأهلِ مكَّةَ وقد أجارَهمُ اللهُ مِن أصحابِ الفيلِ فليس لكم به يَدانِ، فدخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً[٢].

وقيلَ: إنَّ الفتحَ يعُمُّ مكَّةَ وغيرَها ممَّا فُتِحَ بعدَها مِن الحُصونِ والمدائنِ كالطَّائفِ وغيرِها مِن مُدُنِ الحِجازِ واليمنِ وغيرِ ذلك، وهو الذي ذكرَه ابنُ عطيَّةَ[٣].

* * *

وقولُه تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾:

المرادُ بالنَّاسِ: العُمومُ على قولِ الجُمهورِ.

وعن مقاتلٍ: أنَّهم أهلُ اليَمَنِ[٤].

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» مِن طريقِ شُعبةَ، عن عمرِو بنِ مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: لما نزَلَتْ هذه السُّورةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قرَأَها رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى ختَمَها، فقالَ: «النَّاسُ حَيِّزٌ، وأنا وأصحابي حَيِّزٌ»، وقالَ: «لا هجرةَ بعد الفتحِ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ». وأن مروان كذَّبَه، فصدَّقَ رافعُ بنُ خَدِيجٍ وزيدُ بنُ ثابتٍ أبا سعيدٍ على ما قالَ[٥].

---

(١) في (ج) و(ر): «الأعراب».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٣٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٤/ ٤٠٠)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٥٧٦).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٢).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١١١٦٧). أبو البختري ـ وهو سعيد بن فيروز الطائي ـ لم يسمع من أبي سعيد.

وظاهر الحديث: إخراج مسلمة الفتح عن فضل الصحبة والهجرة، لذلك سارع مروان إلى الإنكار!!

وهذا يُستدَلُّ به على أنَّ المُرادَ بالفتحِ فتحُ مكَّةَ، فقد ثبتَ في الصَّحيحينِ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ يومَ الفتحِ: «لا هجرةَ ولكن جِهادٌ ونيَّةٌ»(١).

وأيضاً، فالفتحُ المُطلَقُ هو فتحُ مكَّةَ، كما في قولِه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] ولهذا قالَ: «النَّاسُ حَيٌّ، وأنا وأصحابي حَيٌّ».

وروى النَّسائيُّ مِن طريقِ هلالِ بنِ خَبَّابٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: لَمَّا نزَلَت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ.. قالَ: نُعِيَت لرَسولِ اللهِ ﷺ نفسُه حينَ أُنزِلَت، فأخذَ في أشَدِّ ما كان اجتهاداً في أمرِ الآخرةِ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ بعدَ ذلك: «جاءَ الفتحُ، وجاءَ نصرُ اللهِ، وجاءَ أهلُ اليمنِ» فقالَ رجل: يا رسولَ اللهِ! وما أهلُ اليمنِ؟ قالَ: «قومٌ رقيقةٌ قُلوبُهم، لَيِّنَةٌ قلوبُهم(٢)، الإيمانُ يَمَانٌ، والحِكمَةُ يَمَانِيَةٌ، والفقهُ يَمَانٍ»(٣).

وروى ابنُ جريرٍ مِن طريقِ الحُسَينِ بنِ عيسى الحَنَفيِّ، عن مَعْمَرٍ، عن الزُّهريِّ، عن أبي حازمٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: بينَما رسولُ اللهِ ﷺ في المدينةِ إذ قالَ: «اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ، جاءَ أهلُ اليمَنِ» قيلَ: يا رسولَ اللهِ! وما أهلُ اليَمَنِ؟ قالَ: «قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لَيِّنَةٌ طباعُهم(٤)، الإيمانُ يَمَانٍ، والفقهُ يَمَانٍ، والحِكمةُ يَمانِيَةٌ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) في بعض النسخ: «ألسنتهم»، والمثبت هو الموافق لما في «السنن».

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٦٤٨).

(٤) في (ر): «طاعتهم». وللطبري نسخ فيها هذان اللفظان. والذي نقله ابن كثير في «تفسيره»: «طباعهم» ومعناه أقرب. والله أعلم.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٠٦).

ورواهُ أيضاً مِن طريقِ عبدِ الأعلى، عن مَعمَرٍ، عن عِكرمةَ مرسلاً[١].

وكذا هو في «تفسيرِ عبدِ الرَّزَّاقِ»، عن معمرٍ: أخبرَني مَن سمِعَ عِكرِمة، فأرسلَه[٢].

وهذا لا يدُلُّ على اختصاصِ أهلِ اليمنِ بالنَّاسِ المذكورينَ في الآيةِ، وإنما يدلُّ على أنَّهم داخلونَ في ذلك، فإنَّ النَّاسَ أعمُّ مِن أهلِ اليمنِ.

قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: لم يمُتْ رسولُ اللهِ ﷺ وفي العرَبِ رجلٌ كافرٌ، بل دخلَ الكلُّ في الإسلامِ بعد حُنَينٍ والطَّائفِ، مِنهم مَن قَدِمَ، ومِنهم مَنْ قَدِمَ وافِدُه[٣].

ثمَّ كان بعدُ مِن الرِّدَّةِ ما كان، ورجَعوا كلُّهُم إلى الدِّينِ.

قالَ ابنُ عطيَّةَ: المرادُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ العرَبُ عبدةُ الأوثانِ، وأمَّا نَصارى بني تَغْلِب فما أُراهُم أسلَموا قطُّ في حَياةِ رسولِ اللهِ ﷺ لكن أَعْطَوا الجِزيةَ[٤].

والأفواجُ: الجماعةُ إثرَ الجماعةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨].

وفي «المسند» مِن طريقِ الأوزاعيِّ: حدَّثني أبو عمَّارٍ، حدَّثني جارٌ لجابرِ بنِ عبدِ اللهِ قال: قَدِمتُ مِن سفَرٍ، فجاءَني جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما يُسَلِّمُ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٠٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٧٢٨). لكن في المطبوع منه: «عن معمر، عن أيوب، عن عكرمة»!

(٣) في (ج): «ومنهم من لم يقدم وافده». ولفظ ابن عبد البر: «..ومنهم من لم يقدم عَلَيْهِ، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». انظر: «الاستيعاب» ترجمة أبي خراش الهذلي (٤/ ١٦٣٨)، ونقل كلامه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٢)، وعنه نقل المصنف.

(٤) «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥/ ٥٣٢).

علـيَّ، فجعَلْـتُ أُحَدِّثُـه عـنِ افتـراقِ النَّـاسِ ومـا أحدثـوا، فجعـلَ جابـرٌ يبكـي، ثـمَّ قـالَ: سـمعتُ رسـولَ اللهِ ﷺ يقـولُ: «إنَّ النَّـاسَ دخلـوا فـي ديـنِ اللهِ أفواجًـا، وسَـيخرجونَ مِنـهُ أفواجًـا»[١].

* * *

وقولُه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فيه قولانِ حكاهما ابنُ الجَوزيِّ:

أحدُهما: أنَّ المُرادَ بهِ الصَّلاةُ، نقلَه عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

والثَّاني: التَّسبيحُ المعروفُ[٢].

وفي الباءِ في ﴿بِحَمْدِ﴾ قولانِ:

أحدُهما: أنَّها للمُصاحبةِ، فالحمدُ مُضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: فسَبِّحْهُ حامِداً لـه، والمعنى: اجمَعْ بين تسبيحِه، وهو: تنزيهُه عمَّا لا يليقُ به مِنَ النَّقائصِ، وبين تحميدِه، وهو: إثباتُ ما يليقُ بهِ مِنَ المحامدِ.

والثَّاني: أنَّها للاستعانةِ، والحمدُ مُضافٌ إلى الفاعلِ، أي: سَبِّحْهُ بما حَمِدَ به نفسَه، إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمَحمودٍ، كما أنَّ تسبيحَ المُعتزِلَةِ يَقتضي تعطيلَ كثيرٍ مِنَ الصِّفاتِ، كما كان بِشْرٌ المِرِّيسِيُّ يقولُ: سبحانَ ربيَ الأسفلِ[٣].

* * *

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٦٩٦)، وفي سنده مبهم.

(٢) «زاد المسير» لابن الجوزي (٩/ ٢٥٦).

(٣) تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، نعوذ بالله من العماية والضلالة.

وقد يعمي الضلالُ بعضَ الناس فيلتزمون الباطل من لوازم أهوائهم، كهذا القول الوقح السخيف.

وهذا الذي نسب إلى المريسي، نقله حرب الكرماني في «مسائله» (٣/ ١١٤٩ من النكاح إلى آخر الكتاب).

وقولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ أي: اطلُبْ مَغفِرَتَه، والمغفرةُ هي وقايةُ شرِّ الذَّنبِ لا مُجرَّدُ سترِه.

والفرقُ بين العَفْوِ والمَغفرةِ: أنَّ العفوَ محوُ أثَرِ الذَّنبِ، وقد يكونُ بعد عُقوبةٍ عليه، بخلافِ المغفرةِ فإنَّها لا تكونُ معَ العُقوبةِ.

* * *

وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سبحانَه يَقبَلُ توبةَ المُستغفرينَ المُنيبينَ إليه، فهو ترغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التَّوبةِ.

وقد فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمرَ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستغفارِ عند مجيءِ نصرِ اللهِ والفتحِ شُكراً للهِ على هذه النِّعمةِ، كما صلَّى النَّبيُّ ﷺ يوم فتحِ مكَّةَ ثمانِ رَكَعَاتٍ[1]، وكذلك صلَّى سعدٌ رضي الله عنه يومَ فتحِ المدائنِ، وكانت تلك تُسمَّى صلاةَ الفتحِ[2].

وأمَّا عُمَرُ وابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهم فقالَا: بل كان مجيءُ النَّصرِ والفتحِ عَلامةً على اقترابِ أجَلِه وانقضاءِ عمُرِه، فأُمرَ أن يختمَ عملَه بذلك، ويتَهيَّأَ للِقاءِ اللهِ والقُدومِ عليه على أكمَلِ[3] أحوالِه وأتمِّها، فإنَّه لَمَّا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ بحيثُ صارَتْ مكَّةُ دارَ إسلامٍ، وكذلك جزيرةُ العرَبِ كلُّها، ولم يبقَ بها كافرٌ، ودخلَ النَّاسُ في دينِ اللهِ أفواجاً، وقد بلَّغَ رسولُ اللهِ ﷺ رِسالاتِ ربِّهِ وعلَّمَ أُمَّتَه مَناسِكَهم وعِباداتِهم، وتَرَكَهم على البيضاءِ ليلُها كنَهارِها، ولم يبقَ له في الدُّنيا حاجةٌ، فحينئذٍ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠٣) ومسلم (٣٣٦)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٤/ ١٦).

(٣) في نسخة: «أحسن».

تهيَّأَ للنَّقلةِ إلى الآخرةِ؛ فإنَّها خيرٌ له مِن الأولى[١]، ولهذا نَزَلَت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] بعَرَفةَ[٢]، وعلَّمَ الأُمَّةَ مَناسِكَهم وقالَ لهم: «لعلِّي لا أراكمُ بعد عامي هذا»[٣] وقالَ لهم: «هل بلَّغتُ؟» قالَوا: نعم، وأشهَدَ[٤] اللهَ عليهم بذلك[٥]، وودَّعَ النَّاسَ، فقالَوا: هذه حجَّةُ الوَداعِ، وقد خُيِّرَ ﷺ بين الدُّنيا وبين لقاءِ ربِّهِ، فكان آخرُ ما سُمِعَ منه: «اللهمَّ الرَّفيقَ الأعلى»[٦].

ونظيرُ هذا الفهمِ الذي فَهِمَه عمرُ مِن هذه السُّورةِ: ما فَهِمَه أبو بكرٍ رضي الله عنه مِن قولِ النَّبيِّ ﷺ في خطبتِه: «إنَّ عبداً خُيِّرَ بين الدُّنيا وبين لقاءِ ربِّهِ فاختارَ لقاءَ ربِّه»[٧].

وقد سبقَ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ما يدُلُّ على ذلك.

وفي «صحيح البخاريِّ» مِن حديثِ[٨] سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: كان عمرُ رضي الله عنه يُدخِلُني مع أشياخِ بدرٍ، فكأنَّ بعضَهم وَجَدَ في

---

(١) في (ج): «من الدنيا».

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٣٠١٧) من حديث طارق بن شهاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٨٨٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

(٤) في (ج): «فأشهد».

(٥) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. وفيه: فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

وجاء في (ر) هنا: «خير بين لقاء ربه وبين الدنيا».

(٨) في (ج): «عن» بدل: «مِن حديثِ».

نفسِه فقالَ: لم تُدخِلُ هذا معنا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقالَ عمرُ: إنَّه ممَّن قد علِمتُم[١]، فدعاهم ذاتَ يومٍ فأدخلَه معَهم، فما رأيتُ أنَّه دعاني فيهم يومئذ إلَّا ليُرِيهم، فقالَ: ما تقولونَ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقالَ بعضُهم: أُمِرْنا أنْ نحمَدَ اللهَ ونَستغفِرَه إذا جاءَ نصرُنا وفُتِحَ علينا، وسكتَ بعضُهم فلم يَقُل شيئاً، فقالَ لي: أكذاكَ تقولُ يا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقلتُ: لا، قالَ: فما تقولُ؟ قلتُ: هو أجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعلَمَه له قالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فذاك علامة أَجَلِك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، فقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ: لا أعلَمُ[٢] مِنها إلَّا ما تقولُ[٣].

وقد رُويت هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما من غيرِ وجهٍ.

وفي «المسند» عن أبي رَزِينٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ أنْ[٤] قد نُعِيَت إليه نفسُه[٥].

وقد سبقَ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نزَلَت هذه السُّورةُ أخَذَ في أشدِّ ما كان اجتهاداً في أمرِ الآخرةِ.

وروى الخَرائطيُّ في «كتاب الشكر»، مِن طريقِ شاذِّ بنِ فيَّاضٍ، عن الحارثِ ابنِ شبلٍ، عن أمِّ النُّعمانِ الكِنْديَّةِ، عن عائشةَ رضي الله عنها قالَت: لَمَّا نزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] اجتهدَ النَّبيُّ ﷺ في العبادةِ، فقيلَ له:

---

(١) في (ر): «عُلِم» والمثبت من البخاري.

(٢) في (ج) و(ر): «ما نعلم».

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٩٤)، و(٤٩٧٠).

(٤) في (ج) و(ر): «أنه».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٠١).

يا رسولَ اللهِ! ما هذا الاجتهادُ؟ أليس قد غَفَرَ الله لك ما تقدَّمَ مِن ذنبك وما تأخَّرَ؟ قالَ: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»(١)، إسنادٌ ضعيفٌ.

وروى البيهقيُّ، مِن طريقِ سعيدِ بنِ سُلَيمانَ، عن عبَّادِ بنِ العوَّامِ، عن هلالِ بنِ خبَّابٍ، عن عكرمةَ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: لَمَّا نَزَلَت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ دعا رسولُ اللهِ ﷺ فاطمةَ، وقالَ: «إنَّه قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي»، فبَكَتْ، ثمَّ ضَحِكَت، وقالت: أخبَرَني أنَّه نُعِيَت إليه نفسُه فبَكَيْتُ، ثمَّ أخبَرَني بأنَّكِ أوَّلُ أهلي لحاقاً بي فضَحِكْتُ(٢).

وكان ﷺ يُكثِرُ مِنَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستغفارِ بعدَ نُزولِ هذه السُّورةِ.

ففي «الصَّحيحينِ»، عن مَسروقٍ، عن عائشةَ رضي الله عنها قالَت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: «سبحانكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدِك، اللهمَّ اغفِرْ لي» يتأوَّلُ القُرآنَ(٣).

وفي «المُسند» و«صحيح مسلم»، عنها رضي الله عنها قالَت: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ في آخرِ أمرِه من قول: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه، أستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ» وقالَ: «إنَّ ربِّي كان أخبَرَني أنِّي سأرى عَلامةً في أُمَّتِي، وأمَرَني إذا رأيتُها أنْ أُسَبِّحَ بحمدِه وأستغفرَه إنَّه كان توَّاباً، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾» السُّورةَ كلَّها(٤).

---

(١) أخرجه الخرائطي في «فضيلة الشكر لله على نعمته» (٥٢).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٧٣)، والدارمي في «سننه» (٨٠). والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤). ومعنى يتأول القرآن: يعمل بما أُمر به في القرآن.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٠٦٥)، ومسلم (٤٨٤).

وروى ابنُ جريرٍ مِن طريقِ حفص، ثنا[١] عاصمٍ، عن الشَّعبيِّ، عن أمِّ سَلَمةَ رضي الله عنها قالَت: كان رسولُ اللهِ ﷺ في آخرِ أمرِه لا يقومُ ولا يقعدُ، ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلَّا قالَ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنَّكَ تُكثِرُ مِن سبحانَ الله وبحمدِه، لا تذهبُ ولا تجيءُ، ولا تقومُ ولا تقعدُ إلَّا قُلتَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، قالَ: «إنِّي أُمِرْتُ بها»، فقالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ[٢]، غريبٌ.

وفي «المسند»: عن أبي عُبيدةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضي الله عنه قالَ: لَمَّا نزلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ كان يُكثِرُ إذا قرأَها وركَعَ أن يقولَ: «سُبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحمدِكَ، اللهمَّ اغفِرْ لي إنَّك أنتَ التَّوابُ الرَّحيمُ» ثلاثاً[٣].

* * *

واعلَمْ أنَّ التَّسبيحَ والتَّحميدَ فيه إثباتُ صفاتِ الكمالِ، ونفيُ النَّقائصِ والعُيوبِ. والاستغفارَ يَتضمَّنُ وِقايةَ شرِّ الذُّنوبِ، فذاك حقُّ اللهِ، وهذا حقُّ عبدِه، ولهذا في خطبةِ الحاجةِ: «الحمدُ للهِ نحمدُه، ونستعينُه، ونَستغفِرُه»[٤].

وكان رجلٌ في زمنِ الحسنِ البصريِّ مُعتزلَ النَّاسِ، فسألَه الحسنُ عن حالِه، فقالَ: إنِّي أُصبِحُ بين نعمةٍ وذنبٍ، فأُحدِثُ للنِّعمةِ حمداً وللذَّنبِ استغفاراً، فأنا مشغولٌ بذلك، فقالَ الحسنُ: الزَمْ ما أنت عليه فأنتَ عندي أفقهُ مِن الحسنِ[٥].

---

(١) في النسخ: «بن عاصم» وهو خطأ، والمثبت كما في «تفسير الطبري».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧١١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٦٨٣).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ سواءً: ابن ماجه (١٨٩٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وهو في سائر السنن بنحو هذا اللفظ.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٩٦)، وتُذكر القصة عن بكر بن عبد الله المزني، أخرجها ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٦، ١٥٠) أيضاً.

والاستغفارُ هو خاتمةُ الأعمالِ الصَّالحةِ، فلهذا[١] أُمرَ النَّبيُّ ﷺ أن يجعلَه خاتمةَ[٢] عمرِه.

كما يشرعُ للمُصَلِّي المكتوبةَ أن يستغفِرَ عَقِبَها ثلاثاً[٣].

وكما يشرعُ للمُتهجِّدِ مِن الليلِ أن يستغفِرَ بالأسحارِ، قالَ تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقالَ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وكما يشرعُ الاستغفارُ عَقيبَ الحجِّ، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وكما يشرعُ ختمُ المجالسِ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستغفارِ، وهو كفَّارةُ المجلسِ[٤].

ورُوِيَ أنَّه يُختَمُ به الوضوءُ أيضاً[٥].

وسببُ هذا: أنَّ العِبادَ مُقصِّرونَ عن القيامِ بحقوقِ اللهِ كما ينبغي، وأدائِها على الوجهِ اللَّائقِ بجلالِه وعظمتِه، وإنَّما يُؤَدُّونَها على قَدْرِ ما يُطيقونَ[٦]، فالعارفُ يعرفُ

---

(١) في (ج): «ولهذا».

(٢) في (ج): «آخر».

(٣) أخرج مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته: استغفر ثلاثاً.

(٤) روي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم، ومن ذلك ما أخرجه أبو داود (٤٨٢٦) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

(٥) أخرج النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨١) من حديث أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رَقٍّ ثم طبع بطابع، فلم يكسر إلى يوم القيامة».

(٦) في (ض) و(ر): «يطيقونه».

أنَّ قدرَ الحقِّ أعلى وأجلُّ مِن ذلك، فهو يستحي مِن عَمَلِه ويَستغفرُ من تَقصيره فيه، كما يَستغفِرُ غيرُه مِن ذُنوبِه وغَفَلاتِه، وكلَّما كان الشَّخصُ باللهِ أعرَفَ كان له أخوَفَ، وبرُؤيةِ تَقصيرِه أبصرَ، ولهذا كان خاتمُ المرسَلِينَ وأعرَفُهم بربِّ العالمين ﷺ يجتهدُ في الثَّناءِ على ربِّهِ، ثمَّ يقولُ في آخرِ ثنائِه: «لا أُحصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسِك»[١].

ومِن هذا قولُ مالكِ بنِ دينارٍ: لقد هممْتُ أن أُوصي إذا متُّ أن أُقَيَّدَ، ثمَّ يُنطلَقُ بي كما يُنطلَقُ بالعبدِ الآبِقِ إلى سَيِّده[٢]، فإذا سألَني: قلتُ: يا ربِّ إنِّي لم أَرْضَ لك نفسي طرفةَ عينٍ[٣].

وكان كَهْمَسٌ يُصَلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ، فإذا صلَّى أخذَ بلحيتِه ثمَّ يقولُ لنفسِه: قومي يا مأوَى كلِّ سوءٍ، فواللهِ ما رَضيتُكِ للهِ طرفةَ عينٍ[٤].

*** فائدةٌ:**

الاستغفارُ يَرِدُ مُجرَّداً، ويَرِدُ مَقروناً بالتَّوبةِ[٥]:

فإن وردَ مُجرَّداً: دخلَ فيه طلَبُ وِقايةِ شرِّ الذَّنبِ الماضي بالدُّعاءِ والنَّدمِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (ض): «ربه»، وكلاهما ليس في ما رجعنا إليه من المصادر.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١١٢)، والخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (٧١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١١)، وكهمس هو ابن الحسن التميمي، أبو عبد الله الدَّعَّاء من عُبَّاد أهل البصرة، اشتهر ببره بأمه، وبعد وفاتها أقام بمكة حتى مات رحمه الله تعالى. (الحلية ٦/ ٢١١).

(٥) فالمجرد: قول العبد: «أستغفر الله»، والمقرون بالتوبة: قول العبد: «أستغفر الله وأتوب إليه».

عليه، ووقايةِ شَرِّ[١] الذَّنبِ المُتوقَّعِ بالعَزمِ على الإقلاعِ عنه، وهذا الاستغفارُ الذي يمنَعُ الإصرارَ، بقولِه[٢]: «ما أصَرَّ مَنِ استغفرَ ولو عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً»[٣]، وبقولِه: «لا صغيرةَ مع الإصرارِ، ولا كبيرةَ مع الاستغفارِ»[٤]، خرَّجَهما ابنُ أبي الدُّنيا، وكذا في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٣٥].

وفي «الصحيح»: «أذنبَ عبدٌ ذنباً ...» الحديث[٥].

وهو المانِعُ مِن العُقوبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وإن وردَ مَقروناً بالتَّوبةِ: اختصَّ بالنَّوعِ الأوَّلِ[٦]، فإن لم يَصْحَبْهُ النَّدَمُ على الذَّنبِ الماضي بل كان سُؤالاً مُجرَّداً فهو دعاءٌ مَحضٌ، وإن صَحِبَه ندَمٌ فهو توبةٌ، والعزمُ على الإقلاعِ مِن تمامِ التَّوبةِ.

---

(١) جاء في (ر) مقلوباً: «وشر وقاية»، ونقله عن المصنف على الصواب: الآلوسي في «تفسيره» (سورة النصر).

(٢) كذا جاءت في النسخ في هذا الموضع والذي يليه، ولعل صوابهما: «لقوله»، «ولقوله».

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٠٩)، والترمذي (٣٥٥٩)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٢) من حديث أبي بكر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢١٧)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٧٣)، من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيه: «علِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي» الحديث.

(٦) أي طلب وقاية شر الذنب الماضي.

والتَّوبةُ إذا قُبِلَت فهل تُقبَلُ جَزْماً أم[١] ظاهرًا؟ فيه خلافٌ معروفٌ[٢].

فيقالُ: الاستغفارُ المُجرَّدُ هو التَّوبةُ مع طلبِ المغفرةِ بالدُّعاءِ، والمقرونُ بالتَّوبةِ[٣] هو طلَبُ المغفرةِ بالدُّعاءِ فقط.

وكذلك التَّوبةُ إن أُطلِقَت: دخل فيها الانتهاءُ عن المحظورِ وفعلُ المأمورِ، ولهذا عُلِّقَ الفلاحُ عليها، وجُعِلَ مَن لم يتُبْ ظالِمًا[٤]، فالتَّوبةُ حينئذٍ تشملُ فعلَ كلِّ مأمورٍ، وتركَ كلِّ محظورٍ، ولهذا كانت بدايةَ العبدِ ونهايتَه، وهي حقيقةُ دينِ الإسلامِ.

وتارةً يُقرَنُ بالتَّقوى أو بالعملِ الصالح فيختَصُّ حينئذٍ بتركِ المحظورِ، واللهُ أعلَمُ.

* * *

وفي فضائلِ الاستغفارِ أحاديثُ كثيرةٌ:

منها: حديثُ: «جلاءُ القلوبِ تِلاوةُ القرآنِ والاستغفارُ»[٥].

وحديثُ: «فإن تاب واستغفرَ ونَزَعَ صُقِلَ قلبُه»[٦].

---

(١) في (ج): «أو».

(٢) قد ذكره المصنف رحمه الله في رسالته «الكلام على قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

(٣) وهو قول العبد: «أستغفر الله تعالى وأتوب إليه سبحانه».

(٤) قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

(٥) هذا مركب من حديثين: الأول من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٧) وفيه تلاوة القرآن. والثاني من حديث أنس، أخرجه ابن عدي في «الكامل»، في ترجمة النضر بن محرز، وفيه: الاستغفار.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وأول الحديث: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه».

وحديثُ: «ابنَ آدمَ! إنَّك لو بَلَغَتْ ذنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثمَّ استغفَرْتَني على ما كان منك غفرْتُ لك ولا أُبالي»[١].

وحديثُ ابنِ عُمرَ: كنا نَعُدُّ لرَسولِ اللهِ ﷺ في المجلسِ الواحدِ: «ربِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الغفورُ» مائةَ مرَّةٍ[٢].

وحديثُ أبي هُريرةَ مرفوعاً: «إنِّي لأستغفِرُ اللهَ في اليومِ أكثرَ مِن سِبعينَ مرَّةً وأتوبُ إليهِ» خرَّجَه البُخاريُّ[٣].

ومِن حديثِه مرفوعاً: «لو لم تُذنِبُوا لذهبَ اللهُ بكم، ولجاءَ بقومٍ يُذنِبونَ ثمَّ يَستغفِرونَ، فيَغفِرُ لهم» خرَّجَه مُسلمٌ[٤].

وفي «المسند» مِن حديثِ عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَن قالَ حينَ يأوي إلى فراشِه: أستغفِرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلَّا هو الحيَّ القيُّومَ وأتوبُ إليهِ، غَفَرَ اللهُ له ذنوبَه وإن كانت مِثلَ زَبَدِ البحرِ، وإن كانت مثلَ رَمْلِ عالجٍ[٥]، وإن كانَتْ عددَ ورقِ الشَّجَرِ»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٧٢٦) (٥٥٦٤)، وأبو داود (١٥١١)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وفي بعض ألفاظه: «التواب الرحيم».

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٥) هي صحراء النفوذ في شمال جزيرة العرب.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١١٠٧٤)، والترمذي (٣٣٩٧) وقال: حديث حسن غريب.

وحديثُ: «مَن أكثرَ مِن الاستغفار جعَلَ اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجًا». خرَّجه أحمدُ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ[١].

ويعضدُه قولُه تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] الآياتِ، وقولُه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: ٣].

قالَ رياحٌ القَيْسيُّ: لي نيِّفٌ وأربعونَ ذنباً، قد استغفرتُ لكلِّ ذنبٍ مائة ألفِ مرَّةٍ[٢].

قالَ الحسنُ: لا تَملُّوا مِن الاستغفارِ[٣].

وقالَ بكرٌ المُزَنِيُّ: إنَّ أعمالَ بني آدمَ تُرفَعُ، فإذا رُفِعَت صحيفةٌ فيها استغفارٌ رُفِعَت بيضاءَ، وإذا رُفِعَت صحيفةٌ ليس فيها استغفارٌ رُفِعَت سَوْداءَ[٤].

وعن الحسنِ قالَ: أكثِرُوا من الاستغفارِ في بيوتِكُم، وعلى موائِدِكُم، وفي طرُقِكُم، وفي أسواقِكُم، فإنَّكم ما تدرونَ متى تنزِلُ المغفرةُ[٥].

وقالَ لقمانُ لابنِه: أيْ بُنَيَّ! عوِّدْ لسانكَ: اللهمَّ اغفِرْ لي؛ فإنَّ للهِ ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلاً[٦].

---

(١) من وجادات عبد الله بن الإمام أحمد، عن أبيه في «المسند» (٢٢٣٤)، وأبو داود (١٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٩٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٤٩).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٥٨). وفيه: «وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم».

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (١٥٩).

ورُئِيَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في النَّومِ فقيلَ له: ما وجدتَ أفضلَ؟ قالَ: الاستغفارَ[١].

آخِرُه والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ[٢]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٢٦).

(٢) في (ج): «تمت» وفي (ر): «آخر ما وجد من خط المصنف» «بلغ مقابلة على أصله».